المؤتمر القرآني الدولي الثاني
في هدايات القرآن الكريم

تَعظِيمُ اللهِ تَعَالى
فِي هِدايَات القرْآن الكَريم

تنظيم جامعة أفريقيا العالمية بالشراكة مع كرسي الهدايات القرآنية بجامعة أم القرى

عنوان البحث

تعظيم الله في شعر الزهد – عرض وتحليل

اسم الباحث

د/ بان حميد فرحان

د. بان حميد فرحان الرّاوي

تعظيم الله في شعر الزهد

عرض وتحليل

مقدمة

الحمد لله ربِّ العالمين، والصَّلاة والسَّلام علىٰ أفضل خلقه والمرسلين، نبيِّنا محمَّد صلَّىٰ الله عليه وعلىٰ آله وصحبه وسلَّم، ،

أمَّا بعد؛ فإنَّ الأدب نشاط وثيق الصلة بالحياة والحضارة، فليس ثمة حضارة بلا آداب أو فنون، ولما كان الأدب بمفهومه الحقيقي ليس إلا التعبير الصادق عن المشاعر والإحساسات، والتصوير الرائع للعواطف والوجدان بوساطة ألفاظ وكلمات وعبارات متآلفة مترابطة وهو كالمرآة التي تعكس صور المجتمع وعواطف الناس المختلفة؛ ولما كان الأمر كذلك كان لزامًا عليه أن يؤدي وظيفته في تصوير المجتمع الإسلامي وما طرأ عليه من أفكار ومعتقدات وما ظهر فيه من نزعات وتيارات، وقد كان الزهد في أوضح صوره وأجل معانيه يمثل نزعة روحية ظهرت في المجتمع الإسلامي طبعت صورته بطابع خاص فيه.

والله -سبحانه- هو أهل الثناء، وصاحب العظمة والكبرياء، وهو أحقّ من ذُكِر، وأحقّ من عُبِد وحمد. وقد تغنَّىٰ الزُّهاد بأسمائه وصفاته جلّ في علاه، معبرين عن مشاعرهم وتعظيمهم لله جلّ وعلا، بعد ما استشعروا حبّ الله في وجدانهم وأفئدتهم، فأنتجوا لنا الكثير من الشِّعر ممّا تتهذب فيه النفوس، وترتاح إليه القلوب.

وسأسلط في بحثي الضوء علىٰ **(تعظيم الله في شعر الزهد)** للتَّأكيد علىٰ عبودية الإنسان لله -عزَّ وجلَّ- وتعظيمه خوفًا منه وطمعًا في نواله ورضاه ومحبته، من خلال عرض وتحليل نماذج شعرية مختارة من أشعار عدد ممّن اشتهروا بشعر الزُّهد، كالإمام الشَّافعي وابن المبارك وابن كناسة، وغيرهم.

وسيتكوَّن البحث من المباحث الآتية:

الأول: التعريف بالزُّهد، ومصادره في الإسلام.

الثاني: المراحل والعوامل التي ساعدت علىٰ نمو الزُّهد.

الثالث: مظاهر تعظيم الله في شعر الزُّهد.

الرابع: عرض وتحليل نماذج من تعظيم الله في شعر الزُّهد.

ثم أختم بخاتمة فيها أهم النتائج والتوصيات.

ويتلوها فهرس للمصادر والمراجع.

وسأتَّبع في البحث المنهج الاستقرائي الوصفي، ثمَّ التَّحليلي عند عرض النَّماذج، وأسأل اللهَ العونَ والتَّوفيق والسداد.

المبحث الأول: التعريف بالزهد ومصادره في الإسلام

كثرت المعاني التي قيلت في دلالات الزُّهد ومفهومه، إلَّا أنّها جميعًا أخذت من المعنىٰ اللّغوي للكلمة؛ فقد جاء في (اللِّسان): زهد في الشَّيء وعنه، أي: رغب عنه، وتركه. وشيءٌ زهيدٌ: قليلٌ، ومنه: زهد في الدُّنيا؛ أي: تخلَّىٰ عنها للعبادة، فهو زاهد[١].

واصطلاحًا: الزُّهد هو الكفُّ عن المعصية، وعمَّا زاد عن الحاجة. وترك ما يبعد عن الله، ثمَّ الكفُّ عن أمور الدُّنيا جميعًا بتخلية. القلب.

ومن ثمَّ؛ فإنَّه يدلّ بوضوح علىٰ معنًىٰ أوسع من القناعة والورع[٢].

ومن خلال المعنيين (اللّغوي والاصطلاحي) نجد أنَّ الزُّهد قد تضمَّن معنًىٰ ماديًّا وروحيًا وأخلاقيًا، ويرجع السَّبب في ذلك إلىٰ العلاقة المتينة بين معنىٰ الزُّهد المادي والرُّوحي؛ إذ لا معنىٰ أن يزهد المرءُ في الدُّنيا والثَّروة خشيةً وتعبدًا، ثمّ يمارس المحرَّمات، فكان هذا التَّزاوج وليدَ الرُّوح والفكر الإسلاميين[٣].

إنَّ الآراء التي قيلت في البدايات الأولىٰ لهذه الظَّاهرة وأصولها كثيرة ومتنوعة؛ فقد ذهب بعض الباحثين إلىٰ أن الزّهد قديم، وأنّه السِّمة المشتركة بين مجموعة الدِّيانات السَّماوية وحتىٰ العقائد الوثنية[٤]. وذهب بعضهم إلىٰ أنَّه جاهلي ويعود إلىٰ الدِّيانة المسيحية والدِّيانة الإبراهيمية التي يعرف أصحابها بالأحناف، ويستند أصحاب هذا الرَّأي إلىٰ بعض النُّصوص الشِّعرية مثل شعر عدي بن زيد، وأمية بن أبي الصَّلت التي تعكس هاتين الدِّيانتين[٥].

وفي الوقت الذي يذهب بعضهم فيه إلىٰ أن الزهد إسلامي المنشأ، وإن مصادره قائمة في القرآن الكريم[٦]، يذهب بعضهم الآخر إلىٰ أنه غريب عن الإسلام وأنه نشأ نتيجة الاختلاط بأهل المسيحية، وما أدت إليه الترجمة من تأثير في عقلية المسلمين[٧].

---

(١) ينظر: لسان العرب (مادة: زهد).

(٢) ينظر: دائرة المعارف الإسلامية (١٠/ ٤٥١). وينظر: تاريخ الأدب العربي العصر العباسي الأول (٥٢)، وشعر الزهد في القرنين الثاني والثالث للهجرة (٢٧).

(٣) ينظر: شعر الزهد والتصوف في القرنين الثالث والرابع الهجريين (١٠).

(٤) ينظر: في التصوف الإسلامي وتاريخه (٤٢). وينظر: شعر الزهد والتصوف (١٢).

(٥) ينظر: شعر الزّهد والتصوف (١٣).

(٦) ينظر: التطور والتجديد في الشعر الأموي (٦٠).

(٧) ينظر: الحضارة الإسلامية ومدىٰ تأثرها بالمؤثرات الأجنبية (٢/ ١٤).

إن الاطلاع علىٰ الآراء المتباينة والمتضاربة في حقيقة أصل الزهد ونشأته يدفعنا للآخذ بما ذكره د. رافع عبد الحليم الذي لم ينكر وجود شعر جاهلي في الزُّهد، إلَّا أن الزهد عنده يرتبط ارتباطا (مباشرًا) بالإسلام، بل أنّ الزّهد -علىٰ حدِّ قوله- ابن الإسلام معلِّلًا ذلك بأنّ الزُّهد في الجاهلية أقرب إلىٰ أن يكون حكمة أو موقفا، أو رهبنة مسيحية[١].

ولعلّ الرأي الأخير أقرب الآراء من الحقيقة والصَّواب، لا بل هو الحقيقة ذاتها، فالزهد في نظر الإسلام «هو أسلوب من الحياة يحييها المؤمن، وموقف خاص من الدّنيا وزخرفها وشهواتها ولذاتها ومن النّفس ومطامعها، وأخذ الإنسان نفسه بالمجاهدات الروحية والبدنية.

وهو بهذا المعنىٰ إسلامي، حثَّ عليه الدِّين، وأخذ به النبي ﷺ وأصحابه»[٢]؛ إذ حذّر الإسلام ورسولنا الكريم من الفتنة بمباهج الدُّنيا مؤكِّدًا علىٰ حسن العبادة من صلاة وصوم؛ وهذا ما يدخل في صميم الزُّهد، مبيِّنًا أنّ الفائزين برضوان الله هم: ﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلْعَـٰبِدُونَ ٱلْحَـٰمِدُونَ ٱلسَّـٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّـٰجِدُونَ ٱلْـَٔامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [التوبة: ١١٢].

ومصادر الزهد الإسلامي هي:

أوَّلًا: القرآن الكريم:

إذ يعدّ القرآن الكريم القاعدة الأساسية للزُّهد في الإسلام، ففيه دعوة واضحة إلىٰ الزّهد بالحياة الدنيا وزخرفها وزينتها، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، ووجَّه إلىٰ عدم الاشتغال بمتاعها، فقال: ﴿لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون: ٩]، وبيَّن أنَّ العمل الصَّالح خيرٌ من ذلك كلّه، فقال: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَـٰتُ ٱلصَّـٰلِحَـٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾ [الكهف].

وقد صوّر الآخرة جنّة ونارًا، فقال: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾﴾ [ق: ٣١]، كما دعا القرآن إلىٰ العبادة وقيام اللّيل والتَّهجد، فقال: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾﴾ [الإسراء].

ثانيًا: الحديث النَّبوي الشَّريف:

كانت حياة الرَّسول ﷺ مثلًا مطابقًا للقرآن كما وصفه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [القلم]، فقد نأىٰ بنفسه عن الغنىٰ والرَّخاء، وحين أقبلت عليه الدُّنيا أعرض عنها، واختار عليها الآخرة، لذا

(١) ينظر: شعر الزهد والتصوف (١٥).
(٢) المصدر السابق (٢٩).

خرج من الدُّنيا ولم يشبع من خبز الشَّعير، وكان فراشه من أدم وحشوه ليف، ولقد شهده عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يضطجع علىٰ حصير أثرَّ في جنبه، فعرض عليه أن يتخذ وطاء فقال الرَّسول ﷺ له: «مَا لِي وَلِلدُّنْيا، مَا أَنَا وَالدُّنْيَا إِلَّا كَرَاكِبٍ اسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ، ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا»(١).

وتتجلَّىٰ دعوته إلىٰ الزُّهد في أحاديثه الشَّريفة التي يصوِّرها بقوله ﷺ: «الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ، وَجَنَّةُ الْكَافِرِ»(٢)، ولذلك فالزُّهد يبلغنا رضاء الله، وقد سأل رجلٌ الرَّسول ﷺ، فقال: دلَّني علىٰ عمل إذا عملته أحبَّني الله وأحبَّني النَّاس؛ فقال الرَّسول ﷺ: «ازْهَدْ فِي الدُّنْيَا يُحِبَّكَ اللهُ، وَازْهَدْ فِيمَا فِي أَيْدِي النَّاسِ يُحِبُّكَ النَّاسُ»(٣).

وفي أقواله وصف للجنة وترغيب للأعداد لها، ووصف للنار والتخويف منها.

ثالثًا: الخلفاء الرَّاشدون والصَّحابة:

إنَّ المصدر الثَّالث لحركة الزُّهد هو حياة الرَّاشدين والصَّحابة؛ إذ انعكست فيها تعاليم القرآن وأقوال الرَّسول الكريم، فأبو بكر الصِّديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان يمنع نفسَه ما تشتهي من الطَّعام، وحين تُوفِّي لم يبقَ -علىٰ غناه- ولم يبقَ معه إلَّا درهم واحدٌ(٤)، وكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في بعض خطبه يقول: «إنَّكم في مُهَل، ومن ورائه أجَل، فبادروا في مُهَل آجالكم قبل أن تنقطع آمالكم، فتردكم إلىٰ سوء أعمالكم»(٥). وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عُرِف بخشونة طعامه حتىٰ أنَّه كان يأبىٰ أن يأكل لحمًا بسمن، ولا أن يشرب عسلًا، ولا أن يجمع إدامين، وكان له ثوب واحد فيه اثنتا عشرة رُقعةً، وكان يغسله بيده(٦). وقال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ما كانت الدنيا همَّ رجلٍ قط إلا لزم قلبه أربع خصال فقر لا يدرك غناه، وهمَّ لا ينقضي مداه، وشغل لا يتعد أولاه، وأمل لا يبلغ منتهاه»(٧). وعثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان يأكل علىٰ غناه الخَلَّ والزَّيت، ويُطعم النَّاسَ طعام الإمارة، وكان يَقيل في المسجد وهو يومئذ خليفة، ويقوم وأثر الحَصباء في جنبه(٨). وعليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

(١) أخرجه التِّرمذيُّ (٢٣٧٧). وينظر: التيار الإسلامي في شعر العصر العباسي الأول (١٥٠).
(٢) أخرجه مسلمٌ (٢٩٥٦).
(٣) أخرجه ابن ماجه (٤١٠٢). وينظر: البيان والتبين (٣/ ١٦٦)، والتطور والتجديد في الشعر الأموي (٦١).
(٤) ينظر: الطبقات الكبرىٰ (٣/ ١٥٢).
(٥) زهر الآداب وثمر الألباب (١/ ٧٠).
(٦) ينظر: طبقات الكبرىٰ (٣/ ٢٣٠).
(٧) زهر الآداب (١/ ٧٢-٧٣).
(٨) ينظر: الطبقات الكبرىٰ (٣/ ٣٦).

زاهد في الدُّنيا مقبل علىٰ الآخرة، يستوحش من الدُّنيا وزهرتها، ويستأنس باللَّيل وظلمته، وكان غزير العبرة، طويل الفكرة. يعجبه من اللِّباس ما قصر، ومن الطعام ما خشن[(١)]، وكان يقول: «يا دنيا، إليكِ عنِّي، أغري غيري، إليَّ تعرضتِ؟!، أم إليَّ تشوَّقتِ؟! هيهات، قد باينتكِ ثلاثًا لا رجعةَ لي عليكِ، فعمركِ قصير، وخطرك حقير، وخطبك يسير، آهٍ من قلَّة الزَّاد، وبُعد السَّفر، ووحشة الطَّريق»[(٢)].

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (١/ ٨٤).

(٢) زهر الآداب (١/ ٧٨-٧٩).

المبحث الثاني: المراحل والعوامل التي ساعدت على نمو الزهد

يمتد الزُّهد – كما ذكرنا آنفًا- إلىٰ العصر الجاهليِّ، وقد كان أقرب ما يكون إلىٰ الحكمة ومن أمثلته قول لبيد[1]:

أرىٰ النَّاسَ لا يَدْرُون ما قَدْرُ أمرِهمْ بلىٰ، كلُّ ذي لُـــبٍّ إلىٰ الله واسِلُ

ألا كلُّ شـــيءٍ ما خـلا اللهَ بـاطِلُ وكـــلُّ نعيـــمٍ لا محـالةَ زائلِ

إذ يظهر لبيد إدراكه لحقيقة يغفلها الكثير، إلَّا أصحاب العقول حيثُ يقرّ عودة كلِّ شيء إلىٰ خالق الكون مدبِّر الأمر، وفي بيته الثاني يستفتح تأكيدَه لهذه الحقيقة بأداة الاستفتاح معقبًا لها بـ (كلّ شيء) ليفيد عموم الجمع، وقد اعتمد أسلوب الاستثناء في تأكيده زوال كلِّ شيء لتبقىٰ حقيقة واحدة ثابته متمثلة في ذات الله الحي الباقي.

وقول أميَّة بن أبي الصَّلت[2]:

كـلُّ عـيـش وإن تـطـاول يـومَـا مـنـتـهىٰ أمـرِه إلـىٰ أن يـزُولا

اجعلِ الموتَ نُصبَ عينيكَ واحذَرْ غَـولَـةَ الـدَّهـرِ إنَّ لـلـدَّهـرِ غُـوْلَا

ولا يختلف أميّة عن صاحبه في إيمانه أنَّ الحياة زائلة لامحالة مهما طال أمدُها أو قَصُر، محذِّرًا من غدر الزَّمان الذي استعار له صورة من صور الحكاية والمورفولوجيا حيثُ جعل للدَّهر غُولًا يفترس كلَّ من يقع تحت ناظريه، وتظهر روعة التَّصوير في حسن جِناسه في عجز بيته الثاني.

وعندما جاء الإسلام عمل علىٰ تعديل المفاهيم السَّابقة، ومنها الزهد؛ إذ منحه أشكالًا تتلاءم وتعاليمه الجديدة، حيثُ شاعت لفظة الزَّاهد بخلاف العصر الجاهلي الذي شاعت فيه لفظتَي عابد وناسك[3].

إنَّ ورود تساؤل (ما الزهد؟)، وذلك عندما سأل سائل النَّبيَّ ﷺ: ما الزُّهد في الدُّنيا؟ يدلّ علىٰ «أنَّ الزُّهد كان له وجود ديني معيّن، وله أبعادٌ ودلالاتٌ تتجاوز المعنىٰ الاستعمالي

---

(١) ديوان لبيد بن ربيعة (٨٥).

(٢) كتاب الأغاني (٣/ ١٨٣).

(٣) ينظر: شعر الزهد والتصوف: ص٢٦.

للفظة؛ إذ تشير إلىٰ أنَّ الرَّسول ﷺ قد أذن بولادة هذه الحركة، ومن طرف ثانٍ يشير إلىٰ جعل بعض المسلمين بماهية الزُّهد»[١]. وهكذا ظهرتِ الطَّلائع الأولىٰ للزُّهد محدِّدًا له معالم مرحلته الأولىٰ التي أكسبته الهوية الإسلامية، ذلك لأنَّ الفِكر الإسلامي لم يترك شيئًا من حياة الأمّة دون تناوله، وأنَّ الزُّهد كان ضمن هذه المفاهيم التي طرحها الدِّين الحنيف، ولكن بالصُّورة التي تتلاءم وتتناسب مع مجموع الدَّعوة[٢]. وإذا كان عصر النُّبوة هو المولد الحقيقي للزُّهد الإسلامي؛ فإنَّ لعصر بني أمية دورٌ بالغٌ في إنمائه وتطوره، ولقد شهد القرن الأوّل الهجري الأوّل وبخاصة الثُّلثين الآخرين منه تطورات وأحداث جديدةٌ عملت مجتمعه علىٰ تغذية حركة الزُّهد ونموِّها، وهي:

١ - **العامل السياسي:**

فقد حاقت بالمسلمين فتن مظلمة بعد مقتل الخليفة الرَّاشدي الثَّالث عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، واختلط عليهم وجه الحقِّ فيها حتىٰ احتربوا واقتتلوا، وهُدِرت دماؤهم الزَّكية، وكان ما نشب بين الفرق الإسلامية -بعد ذلك- محنة عصيبة أخرىٰ ألمَّت بالمسلمين، وهذه المحنة تتمثَّل بمن أحقُّ بالخلافة علي أمِّ معاوية؟؛ فقال فريقٌ: عليٌّ وتشيَّعوا له (والذين يذكرهم التَّاريخ باسم الطَّالبيين أو الشيعة)، وقالت طائفةٌ أخرىٰ: بل هو معاوية. وقد آلت الأمور إلىٰ فوضىٰ أدَّت إلىٰ الاحتكام فيما بينهم إلىٰ القرآن الكريم، وهو ما زاد الخلاف تعقيدًا، فهذا راضٍ بالتحكيم، وذاك غاضب عليه، وآخر لا يعترف بالحكم إلَّا لله، وهؤلاء الذين خرجوا عن جيش عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وتركوا الكوفةَ، وعُرِفوا بالخوارج[٣].

إزاء هذا الصِّراع المستعر بين الأحزاب الثَّلاثة وَجَد فريقٌ من النَّاس أنَّ هذه الخلافات والمنازعات توشك أن تعصف بحياة المسلمين، فكلُّ فريقٍ ينكر الفريقين الآخرين، ويشهر عليهما حربًا عشواء، ولذلك آثروا الانقطاعَ عن تلك المشكلات والخلافات القائمة، وعدم المشاركة فيها بالتَّجاوز عن الدُّنيا واعتزالها للنَّجاة من الزَّيغ والضَّلال والإثم والسَّيِّئات[٤].

---

(١) المصدر السابق (٢٦).

(٢) المصدر السابق (٢٨).

(٣) ينظر: شعر الزهد (٣٣).

(٤) التيار الاسلامي، ص١٥٨.

وهكذا بدأت البذور الأولىٰ تنمو لتمثل ظاهرة دينية فكرية رغبت بالزهد، وقد لاحظ الدُّكتور عبد الحكيم حسَّان: «إنَّ بين سنة ٤٠هـ و١١٠هـ ازداد عدد الزهاد الذين انتشروا في البصرة والكوفة والمدينة لتهيبهم من أثار ونتائج هذه الحركة وطمعهم في الجنة وخوفهم من النار، ويبدو أن هذا أول اتجاه مقصود في حركة الزُّهد والعزلة»[١].

وقد ظل النِّزاع قائمًا بين فرق المسلمين بعد ما آلت الدَّولة الأموية، وأخذ العبَّاسيون بزمام الحكم والسُّلطة، لا بل إنَّ فساد الإدارة السَّياسية العباسية والأوضاع الاقتصادية للمجتمع العباسي بما فيه من ثراء فاحش من جانب وفقر مدقع، من جانب آخر دفع بكثير من النَّاس للزُّهد بالحياة، والقناعة بما قسم الله لهم خوفًا من أن يقعوا في الإثم، ويصبحوا مسؤولين أمام ربّهم عمّا وصل إليه المجتمع الإسلامي من خلاف وتناحر[٢].

٢- العامل الاجتماعي:

فقد واكب حياة الهدوء والاستقرار بعد الفتح الإسلامي رخاءً وازدهارًا في اقتصاديات الدَّولة الإسلامية، وقد كان لهذا أثارٌ سيئة؛ إذ إنَّ حياة التّرف أنذرت بتخلِّي قسم من النّاس عن روح الدِّين متَّجهين للهو واللّذات، وقد أعانت السِّياسة الأموية علىٰ ذلك بإسباغ العطايا والمنح الجزيلة علىٰ أهل الحجاز لإشغالهم عن السِّياسة والخلافة[٣].

أمَّا العصر العباسي؛ فقد كان التّرف والنعيم أكثر ممّا كان عليه في العصر الأموي، كما كثرت مجالس اللّهو والشَّراب والضّرب والجواري، ولقد أدّىٰ بذخ وترف الحكام والولاة والتُّجار إلىٰ غلاء المعيشة، وارتفاع الأسعار، وشقَّ الحال علىٰ الطبقة الكادحة من الشّعب، وكثر السَّلب والنَّهب، وشاع الفسق في المجتمع العباسي وفي بغداد علىٰ وجه التَّحديد، وهذا يعني أنَّ الحياة العبَّاسية قد انحرفت عن المثل العليا السَّامية التي تحلَّىٰ بها المسلمون الأوائل، وهو ما دفع عددًا من النَّاس إلىٰ استهجان الحياة متَّخذين لأنفسهم موقفًا خاصًّا لا يحيدون عنه، وهو نبذ كلّ غاية دنيوية مطالبين بالرجوع إلىٰ التمسك بالدين ومثله العليا وسيرة الرسول والصحابة[٤].

---

(١) التَّصوف في الشِّعر العربي (٣٥)، نقلًا عن المصدر السَّابق (١٥٨).

(٢) ينظر: في التصوف الإسلامي وتاريخه (٤٦). وينظر: أدب الزُّهد في العصر العباسي نشأته وتطوره وأشهر رجاله (١١-٢٠)، وشعر الزَّهد (٣٤-٤١).

(٣) ينظر: التطور والتجديد (١٥٩).

(٤) ينظر: شعر الزهد (٤١-٥١)، وأدب الزّهد (٢٠-٢٩).

وهذه الفكرة نجدها متمثَّلة بقول الشَّافعيِّ[١]:

دَعِ الأيَّـامُ تـفـعـلُ مـا تشـــاءُ وطِبْ نَفْسًـا بِمَا حَكَمَ القَضَـاءُ

وَلَا تَـجْـزَعْ لِـحَـادِثَـةِ الـلَّـيـالِـي فَـمَـا لِـحَـوَادِثِ الـدُّنـيَـا بَـقَـاءُ

والشَّافعيُّ يستسلم استسلامًا للقضاء، فتلك إرادة أرادها الله، وليس للعبد أن يجزع لما تأتي به الخطوب التي يستحيل دوامها، وهنا يبدو تمثَّله للنَّصِّ القرآني واستيعابه لقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾﴾ [الإنسان]، وقوله تعالىٰ: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ [التوبة]؛ إذ أوكل الفعل للأيَّام مع أنَّ أصل الفعل لربِّ الأيَّام ومسيرها، ناهيًا المرءَ عن عدم الصَّبر مع نفيِّه لدوام مصائب الدَّهر.

٣- العامل الثَّقافي:

تقدَّمت الحياة الفكرية والثَّقافية في المجتمع العربي الإسلامي بعد حركات التَّحرر والفتح لا سيما في القرنين الثَّاني والثَّالث؛ إذ حصل التقاء بين الثقافات العربية والفارسية واليونانية والهندية، كما شهد النَّقل الحي والمباشر لتراث الأمّة الفارسية وعاداتها وتقاليدها، فضلًا عن نشاط التَّرجمة ونشاط بعض المسلمين؛ إذ جدُّوا في العلم والبحث، وغالىٰ أنصارُ كلّ ثقافة في رأيّهم فتعصَّبوا لها، وهكذا ظهرت المِلَل والنِّحَل، وبدأت الفلسفة تأخذ مكانها. وبذلك بدأت تظهر نتائج التَّمازج بين الحضارات والفلسفات الأجنبية مع الحضارة العربية[٢]، وقد كان لهذه الحركة الثَّقافية والفكرية دور في نمو الزُّهد؛ إذ أخذ الزُّهاد يلتمسون المعرفة في تلك الكتب المترجمة؛ لأنّهم يرون أنَّه لا خوف من الأخذ من الأمم السَّابقة، وأخذوا يحيلون هذه الأفكار غذاءً شعريًا بديعًا تجلِّله الرُّوحية، وتكتنفه العبرة والعِظة[٣].

٤- العامل الذاتي:

إذ آثرت بعض النفوس الوحدة، وخشيت في التعامل مع الآخرين أن تقع في محظور أو حرام فتعففت، وقد خرج بعضهم إلىٰ المناطق النائية حذرًا من وقوعهم

---

(١) ديوان الشَّافعيِّ (١٩).

(٢) ينظر: شعر الزُّهد والتَّصوف (٣٧-٤٥).

(٣) ينظر: شعر الزُّهد (٢٩-٧٥)، أدب الزُّهد (٢٩-٣٦).

في المعاصي، ولكنهم في الوقت نفسه يسعون لنيل لقمة عيشهم في بعض يومهم فهم لا يرفضون العمل ويخرجون للجهاد إذ دعوا إليه[١]. ولعلّ أهم الأسباب التي دفعتهم إلىٰ هذا النمط من الحياة هو:

أ- الخوف الشديد الذي ألقاه القرآن في قلوبهم في هول اليوم الآخر وعذاب جهنم.

ب- الهم والحزن الذي تملكهم لشعورهم بالمعاصي مما دفعهم إلىٰ قضاء حياتهم في التوبة والاستغفار. وهذا ما جعل سفيان الثوري يقول: «ما أطاق أحد العبادة ولا قوي عليها إلا لشدة الخوف»[٢].

ومن صور الزُّهد الرَّفيعة: عمر بن عبد العزيز الذي قال عنه مالك بن دينار: إنَّما الزَّاهد عمر بن عبد العزيز الذي أتته الدُّنيا فتركها، فلقد كان يرتدي أطمارًا غليظة حين ولي الخلافة، ولم يترك بعد وفاته إلَّا أربع مئة دينار حين كانت غلَّته ٤٠ ألف دينار[٣].

وتتسع دائرة الزُّهد فنجد:

١- طبقة العباد المجتهدين ومنهم سويد بن ثعلبة.

٢- طبقة البكاءين الذين لا ينفكُّون عن البكاء، ومنهم: منصور بن المعتمر الذي عمشت عينُه من طول البكاء.

٣- طبقة القُرّاء التي اتخذت القرآن مائدةً دأبت علىٰ تعلُّمه، والعمل به[٤].

وتلوَّنت حركة الزُّهد بحسب بيئاتها وإن اتَّفقت في مصادرها، ففي المدينة كان الزُّهد وثيق الصِّلة بالقرآن والحديث، كما عند سعيد بن المسيب، وفي البصرة اتَّجه إلىٰ مسلك عقليٍّ وديني عن طريق القصص والوعظ كما عند الحسن البصريِّ، أمَّا الكوفة؛ فقد تأثَّر الزُّهد فيها بالأحداث السياسية مُعبِّرًا عن التَّقصير في نُصرة الحركة المعارضة، وهو ما نجده عند ابن كيسان[٥].

---

(١) ينظر: التَّيار الإسلامي (١٦٢).

(٢) في التصوف الإسلامي وتاريخه (٤٦).

(٣) حلية الأولياء (٥/ ٣٣١).

(٤) التيار الإسلامي (١٦٣).

(٥) ينظر: المصدر السَّابق (١٦٤).

ولاجتماع هذه العوامل دور فعَّال في الشَّعراء الذين استطاعوا أن يقدِّموا أحسنَ النَّماذج الشِّعرية ذات الطَّابع الزُّهدي المتميِّز، وأن يمنحوا الأدبَ العربيَ ألوانًا لم تستطع أغراض الشِّعر المعروفة أن تطمس معالمَها.

المبحث الثالث: مظاهر تعظيم الله في شعر الزهد

إنَّ تعظيم الله أعظم العبادات القلبية التي يجب تحقيقها، والقيام بها، وتربية النُّفوس علىٰ ذلك؛ إذ شريعة الله مبنيةٌ علىٰ تعظيم الله، لا بل هو أصل العبادة، إذ إن العبادات في جوهرها قائمة علىٰ تعظيم الله والخوف منه ومهابته والإيمان برسائله وبرسله. وتعظيم الله -عزَّ وجلَّ- يكون بتعظيم مراقبته وعدم التَّخفي في المعاصي والذُّنوب خشية النَّاس دون خشية الله، كذلك تعظيم ذكره بأسمائه وصفاته، وتعظيم استحقاقه للعبادة وتأدية الفروض من صلاة وصيام وزكاة علىٰ أكمل وجه وصورة، وأيضًا علىٰ تقديم محبَّة غيره وهوىٰ النَّفس علىٰ محبته.

وتتجلَّىٰ مظاهر تعظيم الله في أمور عدَّة يمكِّن إجمالُها فيما يأتي:

١- إفراد الله سبحانه بالوحدانية، وأنَّه الخالق الحاكم المدبِّر لكلِّ شيء، وأنَّ الخلق مقهورون تحت قبضته، ولا إله سواه، ممَّا يوجب حبَّ ما يحبُّه وبغض ما يبغضه، وكان سعيد بن جبير يقول: «ما لكم لا تعظِّمون الله حقَّ عظمته»[(١)].

٢- تعظيم الله تعالىٰ بإثبات صفاته عن طريق تدبُّر معاني أسمائه التي تدلّ كلّها علىٰ الكمال المطلق والحمد المطلق، لاسيما وأنّها مشتقّة من صفاته -عزَّ وجلَّ-، وفي حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مِائَةً إِلَّا وَاحِدًا، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الجَنَّةَ**»[(٢)]، أي: من فهمها، واعتقدها، وأثنىٰ علىٰ الله بها؛ دخل الجنة. فمن أسمائه: المجيد والكبير والعظيم والجبار، وهو -جلَّ وعلا- موصفٌ بالكبرياء والعظمة والعِزَّة والجلال، فهو أكبر من كلِّ شيء، وأعظم من كلِّ شيء، وأجلُّ من كلِّ شيء، تعالىٰ وتقدَّس علوًّا كبيرًا[(٣)]، ومثل ذلك قوله تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾ [الحشر].

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين(٢/ ٤٦٤).

(٢) أخرجه البخاريُّ (٢٧٣٦). وينظر: تعظيم الله (مقال منشور في النت) الموقع الرسمي لسماحة الشيخ عبد العزيز عبد الله آل الشيخ.

(٣) ينظر: شرح أسماء الله الحسنىٰ في ضوء الكتاب والسنة (٣٤).

٣- الإيمان بأنَّ الله تعالىٰ عند ما سنَّ العقوبات كإباحة الشرك به عند الإكراه علىٰ ذلك أو عند الخوف من إلحاق الضرر بالنفس، تشريع القتل للحفاظ علىٰ البشرية من الاستهانة بالأرواح، وحفظ العرض بتشريع حدّ القذف، وحماية المال بإيجاب حدّ قطع اليد علىٰ السارق، وكذلك إسقاط جزءًا من الصلاة بسبب المشقّة [١].

٤- الإكثار من ذكر الله تعالىٰ وتسبيحه وتحميده وتمجيده. ومن مظاهر تعظيمه كمال محبتك له، وتعلق قلبك به، وشوقك إلىٰ لقائه. تعالىٰ والالتزام بأوامره والوقوف عند نواهيه[٢].

٥- ومن مظاهر تعظيم ربّك: خشيته، والخوف منه من عقوبته وغضبه وانتقامه: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾﴾ [البروج]، وتؤمن به حق الإيمان مع الطمع في رحمة الله وفضله، قال أبو نعيم: وتمام التقوىٰ: أن يتقي العبد الله -عزَّ وجلَّ-، حتىٰ يترك بعض ما يرىٰ أنه حلال خشية أن يكون حرامًا، يكون حاجزا بينه وبين الحرام[٣].

٦- مراقبة الله -عزَّ وجلَّ- في كلّ فعل يفعله المسلم، والحرص علىٰ أن يكون كما يحب أن يراه الله تعالىٰ؛ وهذا ما يدعو إلىٰ محاسبة النَّفس، علىٰ ما كان من العبد من غفلة وجهل ومعصية، قال ابن القيم: «وبهذه المقايسة تعلم أن الرب ربٌ والعبد عبدٌ، ويتبين لك حقيقة النفس وصفاتها، وعظمة جلال الربوبية، وتفرد الرب بالكمال والإفضال، وإن كل نعمة منه فضل، وكل نقمة منه عدل، وأنت قبل هذه المقايسة جاهل بحقيقة نفسك، وبربوبية فاطرها وخالقها»[٤] .

٧- التفكر في آيات الله ونعمه وفي ذلك يقول ابن القيم: «فجدير بمن له مسكة من عقل أن يسافر بفكره في هذه النعم والآلاء، ويكرر ذكرها، لعله يوفقه علىٰ المراد منها ما هو، ولأي شيء خلق ن ولماذا هُيئ، وأي أمر طلب منه علىٰ هذه النعم، كما قال تعالىٰ: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَاذْكُرُوا إِذْ

---

(١) ينظر: مظاهر تعظيم الله (مقال منشور في موقع الشيخ ابن باز الرسمي-١٤ أبريل ٢٠١٩)، وينظر: تعظيم الله جل وعلا، علىٰ شبكة الألوكة.

(٢) ينظر: الموقع الرسمي لسماحة الشيخ عبد العزيز عبد الله آل الشيخ.

(٣) ينظر: حلية الأولياء (١/ ٢١٢).

(٤) مدارج السالكين (١/ ١٨٨).

جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ [الأعراف]، فذكر آلائه تبارك وتعالىٰ. ونعمه علىٰ عبده سبب الفلاح والسَّعادة؛ لأنَّ ذلك لا يزيده إلَّا محبَّةً لله، وحمدًا وشكرًا وطاعة»[١].

٨- التَّأمُّل في مخلوقات الله تعالىٰ في الطَّبيعة والحيوانات والبشر للوقوف علىٰ مكانة الله وعظمته وقدرته. وهذا من أعظم وسائل التَّعظيم، وقد ربط القرآن بين التَّأمُّل والتَّعظيم في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ [آل عمران]. وقد وضَّح ابن القيم قولَه تعالىٰ بأنَّه دعوة إلىٰ معرفة الله -عزَّ وجلَّ- عن طريقين هما: الأوَّل: النظر في مفعولاته؛ والآخر: التَّفكُّر في آياته وتدبرها[٢]، الأمر الذي يجعل القلب خاشعًا لعظمة الله وهيبته، ساجدًا لله سجود تعظيم وإكبار وإجلال وإذعان لعزَّته وقدرته[٣].

ولعلّ خيرَ ما يمكن أن نستشهد به لمظاهر تعظيم في الشِّعر العربي قصيدة (بك استجير) والتي اختُلف في نسبة قائلها، وقد نسبت إلىٰ الشَّاعر السُّوداني إبراهيم علي بديوي، والتي يعلن الشَّاعر فيها عن حبِّه وتعلِّق قلبه بالله الذي بات يسعد في مناجاة خالقه مبينًا عدم اكتراثه بالأغنياء والأقوياء الذين هم خلقٌ من خلق الله الغنيِّ القوِّيِّ الذي بيده ملكوت كلِّ شيء -سبحانه- يقسمه بين عباده كيفما يشاء. وذلك في قوله[٤]:

ربَّاه هـآنـذا خلصـــتُ من الهوىٰ ... واســتقبل القلـبُ الخليُ هواكَـا

وتركـتُ أُنســي بـالحيـاةِ ولهوهـا ... ولقيـتُ كـلَّ الأنسِ في نجواكَـا

❁❁❁❁❁

مـا لـي ومـا لـلأغنيـاءِ وأنـتَ يـا ... ربِّ الـغـنـيُّ ولا يُـحَـدَّ غِـنـاكَـا

---

(١) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة (١/ ٢٢٩).

(٢) ينظر: الفوائد (٤٠)، نقلًا عن كتاب: تعظيم الله تأملات وقصائد (١١٥).

(٣) ينظر: مفتاح دار السعادة (١/ ١٩٩).

(٤) القصيدة منشورة في ملتقىٰ أهل الحديث خزانة الكتب والأبحاث في ٢٣/ ٢/ ٢٠٠٥.

ما لي وما للأقوياء وأنت يا ربِّي وربَّ النَّاس ما أقواكَا

ما لي وأبوابَ الملوكِ وأنتَ مَن خلقَ المُلوكَ وقسَّم الأملاكَا

ولعلنا نجد ذكر بعض أسماء الله الحُسنىٰ حينما ذهب لمناجاة الله بصيغة النِّداء (يا) مستعيضًا عن اسميه (الغفور والتَّوَّاب) بقوله: (يا غافرَ الذَّنب، وقابلًا للتَّوب)، كما استعاض عن اسم القادر بـ (القدير)، ممَّا يدلّ علىٰ مدىٰ فهمه لأسماء الله، وحسن تمثُّلِه لها في أبياته، وذلك في قوله:

يا غافرَ الذَّنبِ العظيمِ، وقابلًا للتَّوبِ، قَلبٌ تائبٌ ناجاكَا

❁❁❁❁❁

يأيـها الإنسانُ مـ هلًا واتَّئِدْ واشْكُرْ لِرَبِّكَ فضلَ ما أولاكَا

واسْجُدْ لِمَولاكَ القَديرِ فإنَّما مُسْتَحْدَثاتُ العِلْمِ مِن مَولاكا

ويستمر الشَّاعر في الإقرار بعظم نعم الله علىٰ عباده، مؤكِّدًا ذلك عن طريق همزة الاستفهام التي تصدَّرت بعض أبياته، نحو قوله:

أوَ مَا درىٰ الإنسانُ أنَّ جميعَ مَا وَصَلَتْ إليهِ يَداه مِن نَعْمَاكا؟

أوَ مَا درىٰ الإنسانُ أنَّكَ لو أرَدْ تَ لظلَّتِ الذَّرَّاتُ في مخباكا؟

لو شئتَ يا ربِّي هوَىٰ صَارُوخِهِ أوْ لَوْ أرَدْتَ لَمَا استَطَاعَ حَرَاكَا

يأيُّـها الإنسانُ مَـ هلًا وَاتَئِدْ وَاشْكُرْ لِرَبِّكَ فضلَ مَا أولَاكَا

وَاسْجُدْ لِمَولَاكَ القَدِيرِ فَإنَّمَا مُسْتَحْدَثَاتُ العِلْمِ مِنْ مَولَاكَا

اللهُ مازَكَ دونَ سَائِرِ خَلْقِهِ وَبِنِعْمَةِ العَقْلِ البَصِيرِ حَبَاكَا

ولنا أن نتلمَّس حبَّه وتمجيده لله في قوله:

ربَّاه هآنذا خلصتُ مِنَ الهَوَىٰ واستقبلَ القلبُ الخَلِيُّ هواكا

وتركتُ أُنسي بالحياةِ ولَهْوِهَا وَلَقِيتُ كُلَّ الأُنسِ في نَجْوَاكا

وَنَسِـيـتُ حُبِّي وَاعْتَزَلْـتُ أحِبَّتِي وَنَسِيتُ نَفْسِي خَوفَ أن أنسَاكَا
ذُقْتُ الهَوَىٰ مُرًّا وَلَمْ أذُقِ الهَوَىٰ يـا رَبِّ حُـلْـوًا قبـلَ أن أهْـوَاكـا
أنـا كنـتُ يـا ربِّي أسـيرُ غِشَـاوةٌ رَانَتْ علىٰ قلبي فَضَـلَّ سَـنَاكا
واليومَ يا ربِّي مَسَـحْتُ غِشَـاوَتِي وَبَدَأتُ بِـالقَلْـبِ البَصِـيرِ أرَاكَـا

فهو يعلن عدم تعلُّقِه بالدُّنيا وأهلها؛ إذ لا يوجد مكانٌ في قلبه إلَّا لله، وقد أنساه حبُّ الخالق حبَّ الخلائق، لا، بل نجده يقرّ بعدم معرفته وتذوُّقِه لمعنىٰ الحياةِ وحلوها، إلَّا بعد ما عرف قلبُه حبَّ الله، فأبصر جمال الكون بعد ما أنار اللهُ بصيرتَه، وهداه لمعرفته ورؤيته بقلبه الذي تعلَّق به دون سواه.

ولعلَّ من أجمل ما يمكن أن نسمعه في خشية الله والخوف من غضبه وانتقامه قولُه:

بـكَ أسْـتَجِيرُ وَمَنْ يُجِيرُ سِـوَاكـا فَـأجِرْ ضَـعِيفًـا يَحْتَمِي بِحِمَـاكَ
إنِّي ضَـعِيفٌ أسْـتَعِينُ عَلَىٰ قُوَىٰ ذَنْبي وَمَعْصِـيتي بِبَعْضِ قُوَاكـا
أذْنَـبْـتُ يـا رَبِّـي وَآذَنَـتْـنِـي ذُنُـ ـــوبٌ مَـا لَـهَا مِنْ غَـافِرٍ إلَّا كَـا
دُنيـايَ غَـرَّتْـنـي وَعَـفْـوُكَ غَـرَّنِـي مَـا حِـيـلـتـي فِي هَـذِه أو ذَاكـا؟

فهو يعلن استجارته بالله موقنا أنه لا يمكن لأحد أن يجيره غير الله مؤكدًا ضعفه، معترفًا بذنبه، طامعًا بعد كل ذلك بكرمه ونوال عفوه، كما نجده في موضع آخر يقول:

يـا غَـافِرَ الـذَّنـبِ العَظِيمِ وَقَـابِلًا لِلتَّوبِ: قلـبٌ تـائـبٌ نـاجـاكـا
أتَـرُدُّهُ وَتَـرُدُّ صَـادِقَ تَـوبـتـي حاشـاكَ تَرْفُضُ تائِبًا حاشـاكـا
يـا رَبِّ جِئْتُـكَ نَـادِمًـا أبْكِي عَلَىٰ مَـا قَـدَّمْـتُـهُ يَـدَايَ لَا أتَـبَـاكَـىٰ
أنا لَسْـتُ أخْشَـىٰ مِنْ لِقَاءِ جَهَنَمٍ وَعَـذَابُـ ها لَـكِـنَّـنـي أخْشَـاكـا
أخْشَىٰ مِنَ العَرْضِ الرَّهِيبِ عَلَيكَ يَا رَبِّي وَأخْشَـىٰ مِنْـكَ إذْ ألْقَـاكـا
يـا رَبِّ عُـدْتُ إلىٰ رِحَـابِـكَ تَـائِبًـا مُسْـتَسْـلِمًا مُسْـتَمْسِـكًا بِعُرَاكا

فهو ينادي الله باسمه الذي جاء بصيغة اسم الفاعل (غافر) ليثبت أنَّه وحده الذي يمكن أن يغفر له ذنبه، ويعفوَ عنه بعد ما كرَّر إعلانه عن توبته الصَّادقة، مؤكِّدًا أنَّ خوفَه لا يكمن في معرفته لما قد يلقىٰ من عذاب جنهم، بل لخشيته من لقاء ربِّه وهو مثقلٌ بالخطايا والذُّنوب، وهو مع كلِّ ذلك مُوقِنٌ بكرم عفو الله سبحانه، مستسلِمًا لحكمه، راضٍ بقضائه العادل.

ولم ينفكَّ الشَّاعر من التَّفكُّر في آيات الله ونعمه، والتَّأمُّل في مخلوقاته التي يظهر من خلالها عظم مكانة الله وقدرته. وهذا ما نجده في قوله:

لِـلـهِ فِـي الآفـاق آيـاتٌ لَـعَـ ـــلَّ أقلَّها هو مـا إليـه هـداكـا
ولـعـل مـا في الـنـفـس مـن آيـاتـه عجـب عجـاب لو ترىٰ عينـاكـا
والكـون مشـحون بـأسـرار إذا حـاولـت تفسـيرًا لـها أعيـاكـا
قُـلْ للطبيـب تخطفتـه يـد الردىٰ: يا شـافِيَ الأمراض من أرداكا؟
قُـلْ للمريض نجـا وعوفي بعـد مـا عجزتْ فنونُ الطِّبِّ: من عافاكا ؟
قُـلْ للصَّـحيحِ يموتُ لا مِنْ عِلَّةٍ: مَنْ بالمَنايا يا صَـحِيحُ دَهَاكا؟
قُـلْ للبصـير وكـان يحـذر حفرةً فَهَوَىٰ بِها: مَن ذا الـذي أهْوَاكـا؟
بَلْ سَـائلِ الأعْمَىٰ خَطَا بينَ الزِّحَا مِ بِلَا اصْـطِدَامٍ: مَنْ يَقُودُ خُطَاكا؟
قُـلْ لِلجَنِينِ يَعِيشُ مَعْزُولًا بلَا رَاعٍ وَمَرْعَىٰ: مـا الـذي يَرْعَـاكـا؟
قُـلْ لِلْوَلِيـدِ بَكَىٰ وَأجْهَشْ بِـالبُكَـا ءِ لَدَىٰ الوِلَادَةِ: مَا الذِي أبْكَاكَا؟
وإذا تَرَىٰ الثُّعْبـانَ ينفـثُ سُـمَّـهُ فَاسْـأَلْهُ: مَنْ ذَا بِالسُّمُومِ حَشَاكا؟
وَاسْـأَلْـهُ كَيفَ تَعيشُ يـا ثعبـانُ أو تحيـا وهـذا السُّـمُّ يَمْلَأُ فَـاكـا؟
وَاسْأَلْ بُطُونَ النَّحْلِ كيفَ تَقَاطَرَتْ شَهْدًا؟ وقُلْ لِلشَّهْدِ: مَنْ حَلَّاكَا؟
بَلْ سَـائِلِ اللَّبَنَ المُصَـفَّىٰ كان بَيـ ـــنَ دَمٍ وفَرْثٍ ما الذي صَـفَّاكا؟
وإذا رأيـتَ الحَيَ يخرجُ مِنْ حَنَـا يَا مَيِّتٍ، فَاسْـأَلْهُ: مَن أحْيَاكا؟
وإذا تَرَىٰ ابنَ السُّـودِ أبيضَ ناصـعًا فَاسْـأَلْهُ: مِنْ أينَ البياضُ أتَاكا؟

وإذا ترىٰ ابنَ البيضِ أسـودَ فاحمًا ... فاسـألْهُ: مَنْ ذا بالسَّـوادِ طَلاكَا؟

قُـلْ لِلْهَواءِ تَحُسُّـهُ الأيـدي ويَخْـ ... ـفَىٰ عَنْ عُيُونِ النَّاس: مَنْ أخْفَاكَا؟

قُـلْ لِلنَّبـاتِ يَجِفُّ بعـدَ تَعَـهُّدٍ ... ورعـايةٍ: مَنْ بِـالجَفَـافِ رَمَـاكـا؟

وَإِذا رَأيتَ النَّبْتَ في الصَّـحْرَاءِ يَرْ ... بُو وحدَهُ، فاسْـألْهُ: مَن أرْبَاكا؟

وإذا رَأيتَ البَدْرَ يَسْـرِي نَـاشِـرًا ... أنْوَارَهُ، فاسْـألْهُ: مَنْ أسْـرَاكَا؟

وَاسْـأَلْ شُعَاعَ الشَّـمْسِ يَدْنُو وَهْي أبْـ ... ـعَدَ كلِّ شيءٍ: ما الذي أدْنَاكا؟

قُـلْ لِلمَرِيرِ مِنَ الثِّمَـارِ: مَنِ الـذي ... بِـالمُرِّ مِن دُونِ الثِّمـارِ غَـذَّاكـا؟

وإذا رَأيتَ النَّخْلَ مَشْـقُوقَ النَّوَىٰ ... فَاسْـألْهُ: مَنْ يا نَخْلُ شَـقَّ نَوَاكا؟

وإذا رأيـتَ النَّـارَ شَـبَّ لَـهِيبُـهَا ... فَاسْـألْ لَهيبَ النَّارِ: مَن أورَاكَا؟

وإذا تَرَىٰ الجَبَلَ الأشَـمَّ مُنَاطِحًا ... قِمَمَ السَّحَابِ فَسَلْهُ: مَن أرْسَاكا؟

وإذا تَرَىٰ صَـخْرًا تَفَجَّرَ بِـالمِيَـا ... ـهِ فَسَـلْهُ: مَن بالماءِ شَـقَّ صَـفَاكا؟

وإذا رأيـتَ النَّهْرَ بِـالعَـذْبِ الزُّلا ... لِ جَرَىٰ فَسَلْهُ: مَنِ الذي أجْرَاكا؟

وإذا رأيـتَ البَحْرَ بـالمِلْحِ الأُجَـا ... جِ طَغَىٰ فَسَـلْهُ: مَنْ ذا الذي أطْغَاكا؟

وإذا رأيـتَ اللَّيـلَ يَغْشَـىٰ دَاجِيًـا ... فاسْـألْهُ: مَن يا ليلُ حَاكَ دُجَاكا؟

وإذا رأيتَ الصُّـبحَ يُسْـفِرُ ضَـاحِيًا ... فاسْألْهُ: مَن يا صُبحُ صَاغ ضُحَاكا؟

هـذي عجائبُ طالما أخذتْ بِها ... عَينـاكَ وانْفَتَحَـتْ بِـها أُذُنَـاكـا!!

واللهُ في كـلِّ الـعـجـائـبِ مـاثِـلٌ ... إن لـم تكُـنْ لِـتَـراه فـهُوَ يَرَاكـا؟

فالشاعر يعرض بدائع خلق الله وعظيم قدرته فيما يزيد عن ثلاثين بيتًا لينتهي في آخر المطاف إلىٰ إثبات إن كل عجائب الكون ومقدراته من صنع الله وحده جل جلاله.

المبحث الرابع: عرض وتحليل نماذج من تعظيم الله في شعر الزُّهد

وإذا كنا عرضنا لمظاهر تعظيم الله -عزَّ وجلَّ- فلا بدَّ لنا بعد ذلك إلىٰ بيان انقسام شعراء الزُّهد علىٰ قسمين:

الأوَّل: شعراء زهدوا في الحياة منذ نشأتهم الأولىٰ، مثل: عبد الله بن المبارك، ومحمَّد بن كُنُاسه، ومحمود الورَّاق، والإمام الشَّافعيُّ، وغيرهم.

الآخر: شعراء زهدوا بعد مُجُونٍ، مثل: أبي العتاهية، وأدام بن عبد العزيز، وأبي نُوَاس، ومحمَّد بن يسير الرِّياشيُّ.

وكتب عليُّ بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ الخليفةُ الرَّابع الذي عُرف ببلاغته وزُهده= أبياتًا يُظهر فيها شدَّةَ تعلُّقِهِ بالله، ومدىٰ خوفه منه، وطاعته له، ورغبته في نوال رضاه، ومن ذلك قوله[1]:

ذنوبي إن فكَّرتُ فيها كثيرةٌ ... ورحمة ربِّي من ذنوبي أوسعُ

فما طمعي في صالح قد عملته ... ولكنَّني في رحمة الله أطمع

فهو مع ما عُرف عنه من تقوىٰ وورع، ومع علمه ويقينه أنَّ رحمة الله أوسع من كلِّ شيء= يبقىٰ يستشعر التَّقصيرَ اتجاه الله الذي أوجده من العدم؛ الأمر الذي يدعوه لمناجاة خالقه طمعًا في نوال رحمته. ولم يقف في مناجاته عند طلب العفو، بل ذهب إلىٰ حمد الله وشكره لما أنعمه علىٰ الخلائق. نعمٌ لا تعد ولا تحصىٰ، وفي ذلك يقول[2]:

لك الحمد يا ذا الجود والمجد والعلا ... تباركتَ تعطي من تشاء وتمنعُ

إلهي وخلَّاقي وحرز وموئلي ... إليك لدىٰ الإعسار واليسر أفزعُ

إلهي أنلني منك رَوحًا ورحمةً ... فلستُ سوىٰ أبوابِ فضلك أقرَعُ

ويسير الإمام الشافعي علىٰ خطىٰ سيدنا علي بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في إظهار خوفه من التقصير في حق الله وطاعته، وتوسله بالله ورجائه لنيل رضاه وعفوه، والفوز بالقرب منه والنعيم بجنته، ومن ذلك قوله[3]:

---

(١) ديوان علي بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ (٩٨).

(٢) المصدر السابق (٩٩).

(٣) ديوان الشافعي (١١٤-١١٥).

إليـك إلـهَ الـخلـقِ أرفعُ رغبتي ... وإن كنتُ يا ذا المنِّ والجودِ مجرما
تعـاظمني ذنبي فـأقبلـتُ خـاشــعًـا ... ولولا الرِّضا ما كنتُ يا ربِّ مُنْعِما
فـإنْ تَعْفُ عَنِّي تَعْفُ عَن مُتَمَرِّدٍ ... ظَلُومٍ غَشُــوم لا يُزايـلُ مَـأثمـا
ومَن يعتصـمْ باللهِ يَسْـلَمْ مِنَ الوَرَىٰ ... ومَنْ يَرْجُـهُ هَيـهاتَ أن يَتَنَـدَّمـا

فبعد ما يتوجَّه إلىٰ الله مُلتمِسًا عفوَه= يختم كلامَه بحقيقة ما وصل إليه من أنَّ النَّجاةَ لا تكون إلَّا بالاعتصام بحبل الله، والتزام أوامره، واجتناب نواهيه.

أمَّا ابن القيم؛ فلا يختلف عن غيره من العُبّاد والزُّهاد في ثنائه وتعظيمه لله؛ إذ ذهب إلىٰ بيان تسبيح كلِّ الكائنات بحمده، وشكرهم لنعمه، وذلك في قصيدته التي منها قوله[1]:

تباركَ مَنْ شُـكْرُ الوَرَىٰ عنه يقصـرُ ... لكون أيادي جوده ليس تحصـر
تُسَـبِّحُهُ الحِيتَانُ في المَاءِ وفي الفَلَا ... وُحُوشٌ وطَيرٌ في الهَوَاءِ مُسَـخَّرُ
تُسَـبِّحُ كُـلُّ الكَـائِنـاتِ بحَمْـدِهِ ... سَـمَـاءٌ وأرضٌ والجبـالُ وأبحرُ
جميعًا ومَن فيهنَّ والكُلُّ خاشـعٌ ... لِـهَيبَتِـهِ العُـظْـمَىٰ وَلا يَتَكَبَرُ

فهو يؤكد أن نعم الله التي لا تعد ولا تحصىٰ لا يمكن أن يوفيها أي شكر، وأن الخلائق كلها تسبح بحمده، خاشعة لعظمته.

ولابن المبارك - الذي يمثل الشعراء الزهاد منذ النشأة الأولىٰ - شعر بلغ الغاية في الرقة وحسن اللفظ وجزالة المعنىٰ الفصيح الذي يدور حول المعاني الزاهدة التي تتمثل في ذم الدنيا بزينتها ومتاعها الزائل، وأمانيها الكاذبة داعيًا إلىٰ التماس الرزق من خالق الكون ومدبره، ومن ذلك قوله[2]:

والـتـمـس رزقـك مـن ذي الـ ... ـــعـرشِ وَالـرَّبِّ الـقَـدِيـرِ
وأرضَ يـا ويـحـك مـن دنـيـا ... كَ بـالـقُـوتِ الـيسـيـرِ
إنّـــ ـــها دار بـــلاءٍ ... وزوالٍ وغـــــرورِ

(١) نقلًا من كتاب: تعظيم الله تأملات وقصائد (٢٢٢).
(٢) تاريخ دمشق (٣٢/ ٤٦٤). وينظر: التَّيار الإسلامي (٥٩٣).

فالرِّزق مرهونٌ بيد الله الرَّزَّاق وحده، ولا ينبغي طلبه إلَّا منه، والرَّضا والقناعة لا بدَّ منهما في حياة وصفها خالقها بمتاع الغرور، معتمدًا في عرض فكرته أسلوب الإنشاء الطَّلبي الذي يفيد الأمرَ، والغرضُ منه الالتماسُ والنَّهيُ لينتهي به إلىٰ الخبر الذي يقرِّ به حقيقةً فكرةِ زوال الدُّنيا بما فيها. ويخلص ابنُ المبارك من ذمِّ الدُّنيا، والزُّهد فيها إلىٰ التَّذكير بالآخرةِ، والتَّحدث عن الذين فضلوا من أصحاب القبور؛ إذ يقول[١]:

قد تصفحت قبور القـ ـــــومِ في يوم العثير
لم تميِّزهم ولم تعـ ـــــرف غنيًّا من فقير
خمدوا فالقوم صرعىٰ تحت اسقاف الصخور
استووا عند مليك بمساويـ ـهم خبير

فهو لا يرىٰ فرقًا بين قبر سيّد القوم وخادمهم، فكلاهما متوارٍ تحت الثَّرىٰ مستعينًا بالطِّباق (أحد فنون البديع) لينفي ويثبت في الوقت نفسه تساوي المخلوق أمام الخالق، وفي هذا تضمينٌ لفظيٌ ومعنويٌ لقوله تعالىٰ: ﴿فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ﴾ [الحاقة: ٧]. وابن مبارك يصوِّر كيف كان الزُّهاد من العلماء والمحدثين يتعفَّفون عن مناصب الدَّولة خوفًا علىٰ أنفسهم من أن تغرَّهم الدُّنيا فينحرفوا عن الجادَّة[٢]. ولعلنا نتلمس تعظيمه لله في عدالته؛ إذ الكُلّ سواسية لا يميِّز بينهم إلَّا بحسن أعمالهم وطاعتهم لله، كما يتَّضح تعظيمَه في تضمين شعره لأحد أسماء الله وهو (الخبير).

وقد سعىٰ ابن المبارك رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلىٰ وعظ النَّاس ودفعهم إلىٰ التَّحلِّي والاهتمام بأمور الدُّنيا، وتنبيه النَّاس إلىٰ أخطائهم، مع تأكيدٍ علىٰ الامتثال بما جاء في القرآن الكريم والسُّنَّة النَّبوية الشَّريفة والسَّير علىٰ النهج نفسه الذي سار عليه الصَّحابة والتَّابعون[٣]، ومن وعظهم قوله[٤]:

الصمت أزين بالفتىٰ من منطق في غير حينه
والصدق أجمل بالفتىٰ في القول عندي من يمينه
رب امرئ متيقنٍ غلب الشقاء علىٰ يقينه

(١) تاريخ دمشق (٣٢/ ٤٦٥). وينظر: التيار الإسلامي (٥٩٣).
(٢) ينظر: العصر العباسي (٤٠٤).
(٣) ينظر: شعر الزُّهد (١١٨)، والتّيار الإسلامي (٦٩٩).
(٤) سير أعلام النبلاء (٨/ ٤١٨)، وحلية الأولياء (٨/ ١٧٠).

فـــأزلـــه عـــن رأيـــه فـابـتـاع دنـيـاه بـديـنـه

كما دعا إلىٰ الاعتماد علىٰ الله، والقناعة بما قسمه الله للعباد[١]، نحو قوله[٢]:

أرىٰ أناسًـــا بأدنىٰ الدين قد قنعوا ولا أراهم رضـوا بالعيش بالدونِ

وبأسلوب خبري يقرر **محمد بن كناسة** رَحِمَهُ اللَّهُ وحدانية الله، وذلك في رثاء جاريته[٣]:

الـحـمـد لله لا شـــريـك لـه يـا ليـت مـا كـان منـك لم يكن

إن يـكـن الـقـول قـلَّ فـيـك فـمـا أفـحـمـني غـيـرُ شـــدّة الـحـزنِ

وكان لأبي العتاهية رَحِمَهُ اللَّهُ نفس ميالة إلىٰ مخالطة الشعراء المجان والتردد إلىٰ محلات المغنيين والقيان في شبابه[٤]، إلَّا أنَّه عزف عن الدنيا وملذاتها في الخمسين من عمره، وقد قضىٰ أخريات حياته بالزُّهد والتَّوبة والاستغفار إلىٰ وفاته[٥]، وقد أظهر ندمه علىٰ ما اقترفه من خطايا معلنًا توبته، وطالبًا عفوَ الله ومغفرته، في قوله[٦]:

إلـ هي لا تـعـذبـنـي فـإنِّـي مُـقِـرٌّ بـالـذي قـد كـان مـنـي

ومـا لـي حـيـلـةٌ إلَّا رجـائـي وعفوَكَ إن عفوتَ وحُســنَ ظنّي

فـكـم مـن زلـة لـي في الـبرايـا ولأنـت عليّ ذو فضـــل ومنِّي

إذا فـكـرتُ في نـدمـي عـلـيـ ها عَضَـضْـتُ أناملي وَقَرَعْتُ سِنِّي

يـظـنُّ الـنَّـاسُ بـي خـيـرًا وإنِّـي لشرُّ النَّاس إن لم تعفُ عنِّي!

وهنا يحذف (يا) النِّداء؛ إذ الأصل (يا إلهي) تخفيفًا وإيمانًا منه أن لا وساطة أو فاصل بينه وبين خالقه الذي هو أقرب إليه من حبل الوتين؛ لذا يعكف علىٰ الدُّعاء والرَّجاء طلبًا للعفو والمغفرة، فلا قيمةَ لحياته إن لم يُغفر له، ولا قيمةَ أن يعلوَ شأنه بين الناس إن لم ينل رضاء ربِّه، وفي هذا يتَّضح تعظيمُه لخالقه، ومدبِّر أمره.

---

(١) ينظر: شعر الزُّهد في العصر العباسي من قيام دولة بويه (١٧٣-١٧٤)، (١٦٦-١٦٨).

(٢) تاريخ دمشق (٦/ ٣٤١)، العصر العباسي (٤٠٥).

(٣) ينظر: كتاب الأغاني (١٣/ ٣٤٢).

(٤) ينظر: الأدب العربي في العصر العباسي (٨٩).

(٥) ينظر: المصدر السابق (٩٠).

(٦) أبو العتاهية أشعاره وأخباره (٤٢٥).

أمَّا أبو نُواس الذي عُرف بلهوه ومجونه في شبابه، فقد بدأت تظهر عليه صحوةُ الضَّمير بعد ما اقتنع بوجوب التَّوبة، مستشعرًا ألمًا شديدًا لما فرط في جنب الله في شبابه؛ لذا ختم حياته بالتَّوبة والاستغفار، وأناب إلىٰ ربِّه بعد عمر حافل بالملذات والمجون [١].

ولا عجب أن تدرك نفسُ أبي نواس لحظات تندَّم فيها علىٰ ما فرَّطت في جنب الله متجهة إلىٰ خالقها مستغفرةً باكيةً، وهذا ما يجعل عنصر النَّدم والاستغفار هو الغالب في أشعاره الزُّهدية[٢]، فجاء شعرُه الزُّهديُّ مميَّزًا عن غيره بعنصر النَّدم. ومعانيه في هذا الجانب وليدةُ نفسه المضطربة، فكانت جديدةً في بابها لم يسبقه بها أحدٌ، وبِهذا يُعتبر واضع الأسس لشعر النَّدم والتَّوبة والاستغفار[٣]، من ذلك قوله[٤]:

يـا ربّ إن عظُمـت ذنوبي كثرةً ... فلقـد علمـتُ بـأنَّ عفوَكَ أعظمُ
إن كـان لا يرجوك إلَّا محســنٌ ... فبِمَن يلوذُ ويســتجيرُ المجرمُ
أدعوكَ ربِّي كمـا أمرتَ تضــرُّعًـا ... فإذا رَدَدْتَ يدي فمَن ذا يرحمُ؟!

فأبو نؤاس إذًا كان يعترف بذنبه، فإنه يدعو الله تضرُّعًا وخوفًا، ويعتمد في دعائه وتوسله علىٰ الإقناع العقليِّ بقوله: (إن كان لا يرجوكَ إلَّا محسنٌ، فبمن يلوذُ ويستجيرُ المجرم) المستند إلىٰ الاستفهام الإنكاري لغرض التَّقرير والإثبات. وممَّا قاله أيضًا[٥]:

أراك يـزيـدك الإثـراء شـــوقـا ... إلـىٰ الـدنيـا كـأنّـك لا تـموت
تظـل علىٰ الغنىٰ أبـدًا حريصـــا ... تخـاف فوات شـــيء لا يفوت
وأغـنـىٰ منـك ذو طـمـريـن راضٍ ... مـن الـدنيـا يـبـلـغـه مـا يـفـوت

إذ يعلن عن فلسفته بالغنىٰ الذي يكمن في غنىٰ النفس والقناعة التي نتلمسها عند من زهد بدنياه فاغتنىٰ علىٰ خلاف من دفعته دنياه إلىٰ الجري وراء المال وتحصيله وكأنه ضمن البقاء والخلود فيها، وفي استخدامه المترادف اللفظي (الثراء، الغنىٰ) فضلًا عن الجناس (تموت،

(١) ينظر: شعر الزهد، ص٢٩١.
(٢) ينظر: أدب الزهد، ص٦٠.
(٣) المصدر السابق، ص٦١.
(٤) زهيدات أبي نواس، علي أحمد الزبيدي، مطبعة كوستاتوماس وشركاه، القاهرة، ١٩٥٩م، ص٦٩.
(٥) المصدر السابق، ص٩٦٩٧.

يفوت، فوات، يفوت) ما يزيد بسطه فكرته وعرضها بأسلوب واضح قريب للنفس. ولأبي نُواس في الزُّهد معانٍ وأفكار غير هذه. من ذلك فكرة القناعة التي ظهرت عنده بوصفها مبدأً، كما ظهرت عند كثير من شعراء الزُّهد، ومنه قوله[١]:

طوبىٰ لمن رزق القناعة لم يرد ما كان في يد غيره فيرىٰ ضَرِعْ
ولئن طمعت لتضرعن فلا تكن طَمِعًا فإنَّ الحُرَّ عبدٌ ما طَمِعْ

فالرِّزق مقسومٌ بين العباد كلٌّ ينال حظَّه منه بقدر، ولن يدرك الإنسانُ أملَه في الدُّنيا، إلَّا بعون الواحد الصَّمد، فهو يعطي من يشاء ويمنع عمن يشاء، وهنا تتجلَّىٰ حقيقة التعظيم.

نخلص من كلِّ ذلك: أنَّ أبا نُواس أجاد التَّعبير في هذا الباب عن نفسه بما يخالجها من ندم علىٰ ما مضىٰ، وحسرة لما ذهب، وخوف لما بعد الموت، وقد قال عنه "بروكلمان": «إنَّ زهديات أبي نُوَاس ليست مجرد ألفاظ جميلة، وعبارات مُزوَّقة، بل هي تعبيرٌ صادقٌ عن شعور حقيقي من السَّهل تفسيره بعد أن وعظه الشَّيب، وأيقن بفناء اللَّذائذ النَّعيم، فسلك طريقته، وأجاد وأحسن»[٢].

ولعل التَّذكير بالموت والأخرة، وهو موضوع خصب في شعر الزُّهاد؛ لأنَّه يختال ويفترس بني آدم لا يعرف أحدًا، صغيرًا أو كبيرًا، لو نجا أحد منه لنجا الأنبياء[٣]، ممَّا يدلّ علىٰ الإيمان المطلق بأنَّ البقاء لله وحده، وهو وحده الذي بيده كلّ شيء يحيي ويميت وهو حيٌّ لا يموت، من ذلك قول بهلول بن حمزة الصُّوفي[٤]:

هَبْ أنَّك قد ملكتَ الأرضَ طُرًّا ودان لك البلادُ فكان ماذا؟
أليس غدًا مصيرُك جوفُ تربٍ ويحثو الترب هذا ثم هذا

كما عمد شعراء الزُّهد إلىٰ الحديث عن الجنَّة والنَّار[٥]، التي هما من خلق الله، وقد كتبهما لعباده كلٌّ حسب عمله، من ذلك ما قاله محمود الورَّاق[٦]:

---

(١) زهديات أبي نواس (٢٣).
(٢) تاريخ الأدب العربي (٢/ ٢٧).
(٣) ينظر: شعر الزُّهد في العصر العباسي(٧٨، ١٠٤، ١٢٣).
(٤) تاريخ دمشق (٥/ ٤٠٩). ينظر: الزّهد والتّصوف في الشِّعر العربي (٥٨).
(٥) ينظر: شعر الزُّهد في العصر العباسي (١٤٤-١٤٩).
(٦) العقد الفريد (٣/ ١٢٨). ينظر: العصر العباسي (٤١٠).

يـا غـافـلا تـرنـو بـعـيـنـي راقـد ومشـــاهـدًا للأمر غير مشـــاهـد
تصـل الذُّنوب إلىٰ الذُّنوب وترتجي دَرَكَ الـجِـنـان بهـا وفوزَ العـابـد
ونسيتَ أن الله أخرج آداما منها إلىٰ الدنيا بذنب واحد

ولا يقف تعظيم الله عند الرِّجال، فللنِّساء نصيبٌ منه، إذ أخذت ألسنتهن تصدح بذكر الله -عزَّ وجلَّ- وتمجيده والثناء عليه، وخير ما يمكن الاستشهاد به أبيات رابعة العدوية التي تغنت بذكر الله بعد ما شرح -عزَّ وجلَّ- قلبَها لمعرفته، فأدركتْ ببصيرتها عظمةَ خالقها الذي ملأ قلبَها سكينةً وسرورًا، ومن ذلك قولها[1]:

إنِّي جعلـتُ في الفـؤاد مـحـدثي وأبحت جسمي من أراد جلوسي
فـالجســم منِّي للجليس مؤانسٌ وحبيـبُ قلبي في الفؤاد أنيسُ

فهي تبدي فرحَها وسرورَها وحبَّها لخالقها الذي حبيب الفؤاد، وهو الأنيس. والرَّجاء والشَّوق كله منقطعٌ إليه دون سواه، فهو مصدر العطاء والجود، وفي حبِّه ورضاه تجد السَّعادة والهنا.

وعلىٰ الرغم من تباعد الزَّمان واختلاف المكان بين رابعة العدوية وعاتكة الخزرجيَّة إلَّا أنَّ لسان الأخير ومشاعرها القلبية الجيَّاشة لا تختلف عن سابقتها في حبِّها وعشقها الإلهي؛ إذ راحت تصدح حنجرتها بأبيات المدح والثَّناء والشُّكر لله الذي أوجدها من العدم، معلنةً انقيادها وطاعتها لخالقها، مسبِّحةً هي وكلّ الخلائق لهيبته، معلنةً أنَّ الجباه لا يمكن أن تُحنىٰ إلَّا لعظمته، فهو الذي بيده ملكوتُ كلِّ شيء، وكلٌّ يسير بأمره وقدرته، ومسخَّرٌ لطاعته، وهو مقسِّم الأرزاق، وهو العدل المَلِك اللَّطيف الرَّؤوف الرَّحيم، ومن ذلك قولها[2]:

يُســبِّـحُـكَ الـخـلـقُ في كـلِّ آنِ ويـعـنـو لـ هيـبـتـكَ الـقـانِـتـون
ويســـأَلُـكَ الـرَّحـمـةَ الأتـقـيـا ءُ ويـأوي إلىٰ ظِلِّـكَ المـذنبون
وتُـحْـنـىٰ الـجِـبَـاهُ لـعِـزِّ الإلـهِ ويـخضــعُ لـلأكـبَـرِ الـكـابِـرون
ويـا مُـجريَ الفُـلْـكِ فوقَ البحـا رِ ومِن باطنِ الصَّــخْرِ ثَجَّ العُيون
ويـا مُـجْريَ الشَّــمسِ في أُفْقِـ ها وكُـلٌّ عـلىٰ فَـلَـكٍ يَسْــبَـحـون

(١) شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام (١٥٢).
(٢) تسبيح ومناجاة وثناء (١٣٢-١٣٤). نقلا عن: تعظيم الله تأملات وقصائد (٢٤٨).

تباركتَ كيف سَلَخْتَ النَّها ... رَ منَ اللَّيلِ، كيفَ مَسْخَتَ القُرُون؟
وكيف بَرَيتَ هُم مِن رَغَا ... مٍ وكلٌّ إلىٰ أجل سائرون؟
وسِعْتَ بِحِلْمِكَ طيشَ الجهو ... لِ وغيَّ الكَفُورِ ولُؤمَ الخَؤُون
حكمتَ فأقسَطْتَ في العالمين ... وَبِالعدلِ فَلْيَحْكُمِ الحَاكِمُون
وأنتَ اللَّطيفُ الرَّؤُوفُ الرَّحِيم ... وَأنتَ الرَّفيقُ الشَّفِيقُ الحَنُون

ولعلَّ هذا البيتَ وحدَه يكفي للاستدلال علىٰ تعظيمها لله من خلال وعيها لأسماء الله الحسنىٰ (اللَّطيف، والرَّؤوف، والرَّحيم) وتوظيفها في شعرها الذي يعكس مدىٰ حبِّها وإجلالها لله -عزَّ وجلَّ-.

وبعد كلِّ هذا؛ فإنَّ دراسة الخصائص الفنية للشِّعر مطلبٌ أساسٌ من كلِّ باحث علمي لا من أجل متطلبات البحث المنهجيِّ فحسب، بل لتصبح معها صورة الشِّعر متكاملة بكلّ جوانبها الموضوعية والجمالية، وهنا لا بدَّ من عرض أهم الخصائص لشعر تعظيم الله، وهي:

أوَّلًا: ترك المجال للشَّاعر للتَّعبير الحُرِّ عن أيِّ فكرة تشغله، والدُّخول مباشرة إلىٰ الموضوع حتىٰ أصبحت القصيدة ذات بِنية واحدة من مبدئها حتىٰ ختامها[(١)]، لا يشغل فيها الشَّاعر نفسه إلَّا بفكرة تعظيم الله، والزُّهد بالدُّنيا. من ذلك قول أبي العتاهية[(٢)]:

المرءُ يطلبُ والمَنيَّةُ تطلُبُهْ ... ويدُ الزَّمانِ تُدِيرُهُ وتُقَلِّبُه

ثانيًا: لغة الشِّعر من لغة الحياة اليومية ليفهمها النَّاس فهمًا مباشرًا، ويتأثَّرون بمعانيها فتحدث الاستجابة، الأمر الذي جعل لغةَ الزُّهد وتعظيم الله قريبةً من الصِّياغة النثرية أو الخطبة الوعظية لسهولة الألفاظ ووضوحها، وابتعاد بنائها وعباراتها عن التَّعقيد والغموض[(٣)]، ومن ذلك قول أبي نواس[(٤)]:

إلـَهنا ما أعْدَلَكْ ... عَلَيكَ كُلُّ مَن مَلَك

(١) ينظر: شعر الزّهد (٧٢)، شعر الزّهد في العصر العباسي (٥٤٣-٥٤٨).
(٢) أبو العتاهية أشعاره وأخباره (٣٣).
(٣) ينظر: شعر الزهد في العصر العباسي (٥٩٣-٦٢٤).
(٤) زهديات أبي نواس (٨٠).

لَـبَـيـكَ قَـدْ لَـبَـيـتُ لَـك لَـبَـيـكَ إنَّ الـحـمـدَ لَـك

ثالثًا: استخدام الأوزان القصيرة والمجزؤة التي تنسجم مع غرض التَّعظيم، مثل: مجزوء الكامل والوافر البسيط والرّمل[١] .

رابعًا: الصور الفنية فيه تتسم بالبساطة والسهولة التي تتلاءم مع لغة الشعر وان كانت في الوقت نفسه علىٰ درجة من العمق والابتكار لما تحتوي من عناصر وإبداع تجعل السامع يعيش في جوها ويسبح بعقله في تصورها وتخيلها[٢].

خامسًا: الاقتباس والتضمين لمعاني القرآن بأشعارهم في ذمّ الدُّنيا، وحثّهم علىٰ الطاعة والتَّذكير بالموت والآخرة[٣]، من ذلك قول أبي العتاهية[٤]:

الـمـرءُ آفـتُـه هـوىٰ الـدُّنـيـا والمرء يطغىٰ كلما اسـتغنىٰ

مقتبسًا بيتَه من قوله تعالىٰ: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾ [العلق].

سادسًا: الصِّدق الفني لا سيما عند الشُّعراء الذين قالوا بالزُّهد بعد المجون واللَّهو[٥]، وخيرُ مثال علىٰ ذلك ما نقرأه في قصائده ومقطوعات أبي نواس، من ذلك قوله[٦]:

لِـدوا لـلـموتِ وابـنـوا لـلـخراب فـكـلُّـكُـم يصـيـر إلـىٰ ذهـابِ

لـمَـنْ نـبـنـي ونـحـنُ إلـىٰ تـرابِ نـعـودُ كـمـا خُـلِـقْـنـا مـن تـرابِ

❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁

(١) ينظر: التيار الإسلامي (٧٥٢-٧٥٣).
(٢) ينظر: شعر الزهد (٣٢٤).
(٣) ينظر: التيار الإسلامي (٧١٢-٧١٣).
(٤) أبو العتاهية أشعاره وأخباره (٩).
(٥) ينظر: التيار الإسلامي (٧٧٦-٧٨٣).
(٦) زهيدات أبي نواس (٨٥).

خاتمة

وخلاصة القول:

إنَّ الشُّعراء الزُّهاد أوقفوا كثيرًا من أشعارهم علىٰ تعظيم الله -عزَّ وجلَّ-، مؤكِّدين وحدانيته، مذكِّرين بعظم نعمه، وبديع خلقه. مؤمنين أنَّ في ذكرهم لله وتعظيمهم له خيرًا عظيمًا لهم وللمجتمع بأكمله؛ إذ إنَّ صلاح الفرد -يعني: صلاح المجتمع-، ولذلك كانوا -من خلال قصائدهم ومقطوعاتهم الشِّعرية- يُذكِّرون النَّاسَ بوجوب الالتزام بطاعة الله وتقواه في كلّ أفعالهم وأقوالهم، بعد ما يفيضون بذكر فضله ونعمه، مع التَّذكير بآياته، وما أعده لعباده المتقِّين من نعيم في جنات الخلود. وما توعَّد به العاصين المنكرين لوحدانيته من عذاب عظيم في نار جهنم.

وكانوا يكثرون من محاسبة أنفسهم علىٰ ما قد يكون وقع منهم من تقصير وتفريط، ملتمسين عفو الله -عزَّ وجلَّ-، طامعين في رضاه، ولذلك جاءت أشعارهم مليئة بالعواطف والمشاعر الإنسانية الرقيقة الراقية وبكلمات عذبة مؤثرة تفيض من مشاعر الحب الإلهي الصادق، تعكس مدىٰ خوفهم من خالقهم، ومدىٰ تعلقهم به، وشدة لهفتم إلىٰ لقائه جل في علاه.

مصادر البحث ومراجعه

القرآن الكريم.

١- أبو العتاهية أشعاره وأخباره، تحقيق: الدكتور شكري فيصل، مطبعة جامعة دمشق، ١٩٦٥م.

٢- أدب الزهد في العصر العباسي نشأته وتطوره واشهر رجاله، د. عبد الستار السيد متولي، المطبعة المصرية.(د.ت).

٣- الادب العربي في العصر العباسي، ناظم رشيد، طبع جامعة الموصل، كلية الآداب، ١٩٨٩م.

٤- البيان والتبين، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، الطبعة الأولىٰ، (١٣٦٧هـ- ١٩٤٨م).

٥- تاريخ الأدب العربي، كارل بروكلمان، نقله إلىٰ العربية: عبد الحليم النجار، الإدارة الثقافية جامعة الدول العربية، الطبعة الثالثة، (د.ت).

٦- تاريخ الأدب العربي – العصر العباسي الأول، شوقي ضيف، دار المعارف بمصر، الطبعة الرابعة، ١٩٧٢م.

٧- تاريخ دمشق، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساكر (المتوفىٰ: ٥٧١هـ)، تحقيق: عمرو بن غرامة العمروي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م

٨- التطور والتجديد في الشعرالاموي، شوقي ضيف، دار المعارف بمصر، الطبعة الثالثة، ١٩٦٥م.

٩- تعظيم الله تأملات وقصائد، د. أحمد بن عثمان المزيد، مدار الوطن للنشر، الطبعة الأولىٰ، ١٤٣٢هـ- ٢٠١١م.

١٠- تعظيم الله (مقال منشور في النت) الموقع الرسمي لسماحة الشيخ عبد العزيز عبد الله آل الشيخ.

١١- تعظيم الله جل وعلا (مقال منشور في النت)، د. محمد أكجيم، شبكة الأولكة.

١٢- التيار الإسلامي في شعر العصر العباسي الأول، مجاهد مصطفىٰ بهجت، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، سلسلة الكتب الحديثة، الطبعة الأولىٰ، ١٩٨٢م.

١٣- الجامع الصحيح المختصر، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، دار ابن كثير، اليمامة – بيروت، تحقيق: د. مصطفىٰ ديب البغا، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧ ه – ١٩٨٧م.

١٤- الحضارة الإسلامية ومدىٰ تأثرها بالمؤثرات الأجنبية، فون كريمر، تعريب مصطفىٰ طه، دار الفكر العربي، (د.ت)

١٥- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أبو نعيم الأصبهاني(ت٤٣٠هـ)، مطبعة السعادة، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ١٩٦٧م.

١٦- دائرة المعارف الإسلامية، شهاب الدين الآبشيهي(ت٤٣٠هـ)، نقلها إلىٰ العربية أحمد الشنتناوي وآخرون، مراجعة وزارة المعارف العمومية، (١٣٥٢هـ- ١٩٣٣م).

١٧- ديوان الشافعي، أبو عبد الله محمد بن إدريس، تحقيق، زهدي بكر، دار الثقافة، بيروت- لبنان، (د.ت).

١٨- ديوان علي بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، (الموسوعة الشاملة / ١١٠٠٠ / قسم الدواوين الشعرية).

١٩- الزهد والتصوف في الشعر العربي، سراج الدين محمد، سلسة مبدعون، دار الراتب الجامعية بيروت- لبنان.

٢٠- زهديات أبي نواس، علي أحمد الزبيدي، مطبعة كوستا توماس وشركاه، القاهرة، ١٩٥٩م.

٢١- زهر الآداب وثمر الألباب، أبو إسحاق إبراهيم بن علي الحصري القيرواني(ت٤٥٣هـ)، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٥٣م.

٢٢- سنن ابن ماجه، ابن ماجة أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني (ت ٢٧٣هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر – بيروت، (د.ت).

٢٣- سنن الترمذي، محمد بن عيسىٰ بن سَوْرة بن موسىٰ بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسىٰ (المتوفىٰ: ٢٧٩هـ)، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون، شركة مكتبة ومطبعة مصطفىٰ البابي الحلبي – مصر، الطبعة الثانية، ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥م.

٢٤- سير أعلام النبلاء، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (ت ٧٤٨هـ)، مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة، ١٤٠٥ هـ/ ١٩٨٥ م.

٢٥- شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام، جمعه ورتبه ووقف علىٰ طبعه: بشير يموت، المكتبة الأهلية، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٣٥٢ هـ- ١٩٣٤ م

٢٦- شرح أسماء الله الحسنىٰ في ضوء الكتاب والسنة، سعيد بن علي بن وهف القحطاني، راجعه: الشيخ / د. عبد الله بن عبد الرحمن الجبرين، (د. ط)، (د.ت).

٢٧- شعر الزهد في العصر العباسي من قيام دولة بويه ٣٣٤هـ حتىٰ سقوط بغداد٦٥٠هـ، عبد الستار محمد ضيف، مؤسسة المختار للنشر، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م.

٢٨- شعر الزهد في القرنين الثاني والثالث للهجرة، علي نجيب عطوي، المكتب الإسلامي، ١٩٨١م.

٢٩- شعر الزهد والتصوف في القرنين الثالث والرابع الهجريين، رافع أسعد عبد الحليم، رسالة ماجستير، جامعة بغداد، كلية الآداب، ١٩٧٥م.

٣٠- الطبقات الكبرىٰ، ابن سعد(ت٢٣٠هـ)، مطبعة التحرير، مصر، (د. ط)، (د.ت).

٣١- العقد الفريد، ابن عبد ربه (ت ٣٢٨ هـ)، دار الكتب العلمية- بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٤٠٤هـ.

٣٢- في التصوف الإسلامي وتاريخه، رينولد نيكسون، ترجمة أبو العلا عفيفي، طبعه لجنة التأليف والترجمة والنشر بمصر، ١٩٦٩م .

٣٣- كتاب الأغاني، أبو الفرج الأصبهاني(ت٣٥٦هـ) المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، وزارة الثقافة والإرشاد القومي مصور عن طبعة دار الكتب، (د.ت).

٣٤- لسان العرب، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور (ت٧١١هـ)، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر، الدار المصرية للتأليف والترجمة، مصورة عن طبعة بولاق.

٣٥- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ)، تحقيق: محمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤١٦ هـ- ١٩٩٦م.

٣٦- المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلىٰ رسول الله ﷺ، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري(ت ٢٦١ هـ)، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الجيل – بيروت، طبعة مصورة من الطبعة التركية المطبوعة في استانبول سنة ١٣٣٤ هـ.

٣٧- مظاهر تعظيم الله، محمد مروان، (مقال منشور في النت في١٤ أبريل ٢٠١٩).

٣٨- مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ)، دار الكتب العلمية – بيروت، (د. ط)، (د .ت).

٣٩- ملتقىٰ أهل الحديث- خزانة الكتب والأبحاث في ٢٣/ ٢/ ٢٠٠٥ .